٤٩

مدرسة دار الحكمة للعلوم الإسلامية

مركز مدرار للتنمية والدراسات الإسلامية

محاضرة مكتوبة

التفقه في الدين



سماحة
الشيخ مقداد الكعبي

التفقه في الدين

سماحة الشيخ مقداد الكعبي

محاور المحاضرة:

- **معنى التفقه في الدين**
- **قصة هشام بن الحكم**
- **حوار الإمام الصادق مع الشامي**
- **المقدار الواجب من التفقه**

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين، اللهم صل على محمد وآل محمد، واللَعْنُ الدائم على أعدائهم أجمعين من الأولين والآخرين إلى قيام يوم الدين.

الكلام عن موضوع مهم نافع للشريحة المؤمنة من الشباب، يحتاجونه في حياتهم اليومية ويحدد مصيرهم في دار الدنيا والآخرة، يجعل لهم بصيرة ورؤية واضحة في تمييز الغث من السمين، ويجعل سيرهم على الصراط المستقيم، ويكون سببًا لحل كثير من الشبهات والترددات والمشاكل التي تواجههم، إنه التفقه في الدين، وقد حثت عليه روايات أهل البيت (عليهم السلام)، وسنذكر بعضها ونبيّن ما أريده من التفقه في الدين.

أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول: ((إذا أراد الله بعبد خيرًا فقّهه في الدين وألهمه اليقين))[1]، من أراد الله سبحانه وتعالى به خيرًا يقذف في قلبه حب التفقه في الدين، الخير كل الخير عندما يقذف الله تعالى في قلب العبد حب التفقه في الدين. وفي رواية أخرى عن إمامنا الكاظم (عليه السلام) يقول: ((تفقهوا في دين الله، فإن الفقه مفتاح البصيرة، وتمام العبادة، والسبب إلى المنازل الرفيعة، والرتب الجليلة في الدين والدنيا، وفضل الفقيه على العابد كفضل الشمس على الكواكب، ومن لم يتفقه في دينه لم يرض الله له عملًا))[2]، فالإمام كأنه يسوق الحديث ويعطينا معه ما هو أشبه بالدليل العقلي.

لماذا نتفقه في الدين؟ أولًا: مفتاح بصيرة، ثانيًا: تمام العبادة، أنا اليوم أصلي وأصوم، كلنا نصوم ونصلي، لكن متى أبلغ تمام العبادة؟ تكون صلاتنا تامة عندما نكون متفقهين في أحكام الوضوء وأحكام الصلاة، متى يكون صومنا تامًا؟ عندما نكون متفقهين في أحكام الصوم وهكذا.

[1] - غرر الحكم ودرر الكلم، للقاضي الآمدي: الحكمة 4133.
[2] - بحار الأنوار، العلامة المجلسي: ١٠ / ٢٤٧.

وفي رواية أخرى أيضًا النبي (صلى الله عليه وآله) يقول: ((ما عُبد الله بشيء أفضل من الفقه في الدين))[3]، نحن في بعض الأحيان نبحث عن مصاديق العبادة: الواجبات، صلاة الليل، الزيارة، خدمة سيد الشهداء، النبي (صلى الله عليه وآله) يقول: أتدرون ما أفضل مصاديق العبادة؟ التفقه في الدين، بعد ذلك، سارعوا إلى طلب العلم، إمامنا الصادق (عليه السلام) يقول: ((فو الذي نفسي بيده، لحديث واحد في حلال وحرام تأخذه من صادق خير من الدنيا وما حملت من ذهب وفضة))[4]، الإمام الصادق يقول: سارعوا إلى طلب العلم، اجعلوه من أولوياتكم، هناك أولويات ومهمات في حياتنا، قد يُنهي أحد الإعدادية أو ينهي الدراسة الأكاديمية، يجد له وظيفة، زواج، سيارة، عمل، مهنة إلى آخره، كل ذلك مهم في الحياة، لكن هناك شيء أهم منه، الإمام الصادق (عليه السلام) يقول وهو: التفقه في الدين.

يقول أمير المؤمنين: ((أيها الناس، اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به))[5]، كمال الدين أين؟ في طلب العلم والعمل به، وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال، لا يتسع المقام أن نقف على جميع الأحاديث، لكن أريد أن أضع تصورًا إجماليًا عن أهمية التفقه، عن زياد الصيقل، قال: سمعت أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول: ((لا يقبل الله عز وجل عملًا إلا بمعرفة، ولا معرفة إلا بعمل، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له، إن الايمان بعضه من بعض))[6]، لا يقبل الله عملًا إلا بمعرفة، صلاتنا وصومنا وبقية أعمالنا، عندما نريدها أن تكون مقبولة عند الله، تكون مسبوقة بالمعرفة، حتى تقع أعمالنا صحيحة ضمن القوالب التي يريدها رب العالمين، فمن عرف دلته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له.

[3] - ميزان الحكمة، محمد الريشهري: 3/ 2454.
[4] - وسائل الشيعة، الحر العاملي:٢٧ /٩٨.
[5] - الكافي، الشيخ الكليني: ١/ ٣٠.
[6] - الأمالي، الشيخ الصدوق: ٥٠٨.

الآن تبين إجمالًا أن هناك دعوة من النبي (صلى الله عليه وآله)، وأهل بيته (عليهم السلام): تفقهوا في الدين.

معنى التفقه في الدين

التفقه في الدين له مراحل متعددة. فقد يأتي الإنسان ويتفقه في الدين ويتفرغ لطلب العلم، بحيث يصبح مختصاً في هذا المجال، وهذا نوع من أنواع التفقه، وهو أفضل أنواع التفقه. لكن هذا المستوى ليس هو المقصود هنا، لأن المطلوب هو بيان كيفية أداء وظيفة التفقه في ظل الظروف التي يعيشها الإنسان ووضعه الحالي.

والمقصود بالتفقه هنا هو الفقه بمعنى المعرفة. فهناك مقدار من العلم واجب على الإنسان، سواء كان في أصول العقيدة أو في فروع الدين. ولا بد للإنسان من أن يعرف المقدار الواجب من دينه، ومن ذلك أصول العقيدة: التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة، والمع

عندما يُسأل الإنسان عن عقيدته، قد يقال له: أنت تعتقد أن الله واحد، وأن الله موجود وأنه واحد لا شريك له، فأحضر دليلاً واحداً على ذلك، دليلاً عقلياً ودليلاً قرآنياً. والتوحيد أصل من أصول الدين.

فهل نستطيع أن نجيب بدليل عقلي واحد على وجود الله، ودليل نقلي واحد من القرآن؟ وبعد التوحيد، أصبحنا مسلمين؛ لأننا نقول بالشهادتين، أليس كذلك؟

ثم يأتي السؤال: ما الدليل على أن الله واحد؟ وما الدليل على أن خالق الكون واحد؟ فقد يأتي الإنسان بدليل يثبت وجود خالق لهذا الكون، ولكن ما الدليل على أنه واحد وليس متعدداً؟

وهنا تأتي مسألة صفات الله سبحانه وتعالى. فنحن نؤمن بأن الله حي، ونؤمن بأنه عالم، سميع، بصير، ولكن ما معنى سميع؟ وما معنى بصير؟ وما معنى حي؟ وهل

هذه المعاني للصفات التي تطلق على الله سبحانه وتعالى هي نفسها المعاني التي تطلق على الإنسان، أم أن معاني هذه الصفات تختلف عندما تطلق على الله سبحانه وتعالى؟

نحن عندما نرضى عن شخص، ونقول: رضي فلان عن فلان، أو نقول: غضب فلان، فإن هذه الصفات تُنسب إلى الإنسان. وكذلك تُنسب إلى الله سبحانه وتعالى، فنقول: إن الله يرضى عن المؤمنين، ويغضب على الكافرين، فنصفه بالرضا ونصفه بالغضب.

وهنا يأتي السؤال: هل الغضب الذي يُنسب إلى الله، والرضا الذي يُنسب إلى الله، هما نفس معنى الغضب والرضا اللذين يُنسبان إليّ وإليك؟

فعندما ترضى عن شخص، يكون معنى ذلك وجود تفاعل نفسي وحالة نفسية لديك، لأن هذا الشخص وافق ما تريده. فلو أعطيت قطعة قماش لخياط وقلت له: اخط لي إياها بهذه الصفات، ثم خاطها لك، ونظرت إلى صفات المنتج الذي صنعه، وليكن قميصاً، ورأيت أنه وافق ما تريد، تقول: نعم، أنا راض عنه. فالرضا هنا عبارة عن حالة نفسية.

فإذا قلنا: «فاطمة يرضى الله لرضاها»، أو إن الله يرضى عنا، فهل معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى تصيبه حالة نفسية كما تصيبنا نحن عندما نرضى؟ وكذلك الأمر في غضب الله سبحانه وتعالى.

ومن هنا تأتي أهمية فهم معاني صفات الله سبحانه وتعالى وكيفية إطلاق هذه الصفات عليه، وهل تحمل عند نسبتها إلى الله سبحانه وتعالى المعنى نفسه الذي تحمله عند نسبتها إلى الإنسان، أم أن لها معنى آخر ينسجم مع كمال الله سبحانه وتعالى وتنزهه عن صفات المخلوقين؟

ما الدليل على وجوب وجود الأنبياء؟ هل هناك دليل عقلي على أنه يجب أن يكون هناك أنبياء؟ انظر إلى هذا المقدار من خصائص الأنبياء، صفات الأنبياء،

وظائف الأنبياء، ما الدليل العقلي على وجوب أن يكون هناك إمام من بعد النبي؟ هل هناك دليل عقلي أم لا؟

قصة هشام بن الحكم

عن يونس بن يعقوب قال: كان عند أبي عبد الله (عليه السلام) جماعة من أصحابه منهم حمران بن أعين، ومحمد بن النعمان، وهشام ابن سالم، والطيار، وجماعة فيهم هشام بن الحكم وهو شاب فقال أبو عبد الله (عليه السلام): ((يا هشام ألا تخبرني كيف صنعت بعمرو بن عبيد وكيف سألته؟ فقال هشام: يا ابن رسول الله إني اجلك وأستحييك ولا يعمل لساني بين يديك، فقال أبو عبد الله: إذا أمرتكم بشيء فافعلوا.

قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة فعظم ذلك علي فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة فأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متزر بها من صوف، وشملة مرتد بها والناس يسألونه، فاستفرجت الناس فأفرجوا لي، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتي ثم قلت: أيها العالم إني رجل غريب تأذن لي في مسألة؟ فقال لي: نعم، فقلت له:

ألك عين؟ فقال يا بني اي شيء هذا من السؤال؟ وشيء تراه كيف تسأل عنه؟ فقلت هكذا مسألتي فقال يا بني سل وان كانت مسألتك حمقاء قلت: أجبني فيه قال لي سل قلت الك عين؟ قال: نعم قلت: فما تصنع بها؟ قال: أرى بها الألوان والاشخاص، قلت: فلك انف؟ قال: نعم قلت: فما تصنع به؟ قال: أشم به الرائحة قلت: ألك فم؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أذوق به الطعم، قلت: فلك اذن؟ قال: نعم، قلت: فما تصنع بها؟ قال: أسمع بها الصوت، قلت: ألك قلب؟

قال: نعم، قلت: فما تصنع به؟ قال: أميز به كلما ورد على هذه الجوارح والحواس، قلت: أوليس في هذه الجوارح غنى عن القلب؟ فقال: لا، قلت: وكيف ذلك وهي صحيحة سليمة، قال: يا بني إن الجوارح إذا شكت في شيء شمته أو رأته أو ذاقته أو سمعته، ردته إلى القلب فيستيقن اليقين ويبطل الشك، -في بعض الأحيان، في فصل

الصيف، عندما يخرج الإنسان في وقت الظهيرة وينظر إلى الشارع المبلط من بعيد، قد يخدع النظر الإنسان، فيخيّل إليه أن هناك ماءً، بينما الحقيقة أنه سراب. فقد اشتبهت الحاسة، ولكن من الذي ميّز هذه الخدعة؟ إنه العقل. فالعقل يصحح للبصر ويقول له: لا تشتبه، لا تضل، ولا تنحرف في إدراكك؛ فهذا ليس ماءً، وإنما هو أثر سقوط أشعة الشمس والحرارة وتفاعلها مع الهواء، فيتهيأ للإنسان أنه يرى ماءً، وهكذا يتضح أن الحواس الخمس قد تشتبه أحياناً ويقع عندها الخطأ في الإدراك، ولذلك لا بد من شيء يقوّم إدراكها ويصحح ما تشتبه فيه، وهذا هو العقل. - قال هشام: فقلت له: فإنما أقام الله القلب لشك الجوارح؟ قال: نعم، قلت: لا بد من القلب وإلا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم، فقلت له: يا أبا مروان فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماما يصحح لها الصحيح ويتيقن به ما شك فيه ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماما يردون إليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماما لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك؟! قال:

فسكت ولم يقل لي شيئا.

ثم التفت إليّ فقال لي: أنت هشام بن الحكم؟ فقلت: لا، قال: أمن جلسائه؟

قلت: لا، قال: فمن أين أنت؟ قال: قلت: من أهل الكوفة قال: فأنت إذا هو، ثم ضمني إليه، وأقعدني في مجلسه وزال عن مجلسه وما نطق حتى قمت، قال: فضحك أبو عبد الله (عليه السلام) وقال: يا هشام من علمك هذا؟ قلت: شيء أخذته منك وألفته، فقال: هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسى))[7].

[7] - الكافي، الكليني: ١/ ١٦٩.

حوار الإمام الصادق مع الشامي

كان الإمام الصادق (عليه السلام)، في مواسم الحج، يفتح مجلسه لاستقبال الناس، فيأتيه بعضهم من أهل الشام وغيرهم، ومن بينهم الملحدون والزنادقة والمخالفون، فيجلسون معه ويناقشونه في مختلف المسائل.

وكان الإمام (عليه السلام) قد ربّى مجموعة من الشباب وعلّمهم ودرّسهم حتى أصبحوا من أهل الاختصاص في العلوم والمعارف الدينية، فكان يهيئهم للمناقشة والمحاورة، ويعرّف كل واحد منهم بالمجال الذي يحسن فيه.

وفي إحدى هذه المناظرات، جاء رجل من أهل الشام، فطلب من الإمام (عليه السلام) أن يجلس معه للمناقشة[8]. فقال الإمام: ناقش يا هشام.

فبدأ الحوار، فسأل الرجل: هل ذهب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وترك الأمة من دون أن يعيّن لها أحداً من بعده؟ قال: لا. فقال له: ماذا ترك لها؟ قال: ترك لها القرآن. فقال له: وهل القرآن وحده كافٍ لأن يجمعنا على رأي واحد؟ قال: نعم، القرآن كافٍ. فقال له: إذا كان القرآن وحده كافياً لأن يجمعنا على رأي واحد، فلماذا جئتني من الشام إلى هنا؟ أنت لك رأي، وأنا لي رأي، وكل واحد منا يستند إلى القرآن، فلماذا اختلفنا في فهمه؟ ولماذا تحتاج إلى أن تناقشني وتجادلني ما دام القرآن وحده كافياً في حسم الاختلاف؟

عندها أعاد عليه السؤال: هل ذهب رسول الله (صلى الله عليه وآله) وترك الأمة بلا والٍ أو إمام يرجعون إليه، أم جعل لها والياً وإماماً؟ قال: بل جعل لها إماماً.

فقال له: وما الذي تركه النبي (صلى الله عليه وآله) للأمة؟

قال: ترك القرآن ومفسراً للقرآن. فسأله: ومن هو هذا المفسر؟ فقال: هذا الجالس.

[8] - ينظر الكافي، الكليني: 1/ 171.

وأشار إلى الإمام (عليه السلام).

ثم بيّن أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يترك القرآن للأمة منفرداً عن المرجع الذي يبيّن معانيه ويفسر أحكامه، وإنما ترك القرآن ومعه من يرجع إليه الناس في فهمه وتطبيقه. ولو اتبعت الأمة هذا الجالس الذي نصبه رسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم الغدير، لما افترقت الأمة في أصل دينها، ولما تعددت مذاهبها في أصول الدين وفروعه، ولكان المرجع الذي ترجع إليه الأمة واحداً، فيكون دينها واحداً ومذهبها واحداً.

المقدار الواجب من التفقه

أيها الشباب، أنتم اليوم تعتمدون كثيراً على السماع، وهذا لا يكفي وحده. ينبغي أن تكون لدى كل واحد منكم منظومة دينية واضحة يعرفها ويرجع إليها، ولا أقول لكم: تعالوا وكونوا طلبة علم وتفرغوا للدراسة، أو كونوا مثلنا، وإنما أريد منكم أن تعرفوا أوليات دينكم.

ينبغي أن تكون لديكم معرفة أولية بأصول الدين الخمسة، ومعرفة ببقية المسائل العقائدية بمقدار بسيط يناسب حاجة الإنسان في حياته، ثم معرفة بفروع الدين وأحكامه الأساسية؛ كأحكام الوضوء، والصلاة، والصوم، والواجبات والمحرمات التي تواجه الإنسان في حياته اليومية.

فكم من المحرمات التي يقع فيها الإنسان، ويقع فيها كثير من الشباب، من حيث لا يعلمون أنها محرمة!

فعندما أقول لكم: «تفقهوا في الدين»، وأذكر لكم الروايات التي تحث على التفقه، فالمقصود في المستوى الأول هو الوصول إلى المقدار الواجب من المعرفة الدينية. وأنا لا أريد أن أحرجكم أو أحمّلكم ما لا تطيقون، وإنما أريد أن أسألكم سؤالاً عملياً: هل لديكم برنامج في حياتكم للتفقه في الدين أم لا؟

إن بناء المعرفة الدينية يحتاج إلى برنامج واضح. أولاً، أحدد المصادر التي أرجع إليها: ماذا أقرأ في البداية؟ وكيف أبدأ؟ أريد أن أشكل منظومة دينية.

كيف تطّلعون اليوم على دينكم؟ أنتم أيها الشباب الأحبة الأعزاء، الأمور ملتبسة عليكم، والأوراق مختلطة أمامكم. في كل يوم ترون عشرين خطيباً يصعد على المنبر، فكيف تميزون بين من يقول كلاماً صحيحاً ومن يقول كلاماً خاطئاً؟

وقد تشاهدون خمسين أو ستين أو مئة مقطع في اليوم لعدد من المعممين على مواقع التواصل الاجتماعي، وكل واحد منهم يتحدث بشيء مختلف، فكيف تعرفون أن هذا الكلام صحيح أم لا؟ أنت تتوضأ، فهل تعرف أن وضوئك صحيح أم لا؟ وتصلي، فهل تعرف أن صلاتك صحيحة أم لا؟ وكيف نستطيع أن نميز هذه الأمور؟

ما مصادر المعرفة الدينية عندكم؟

يجب أن نكون واقعيين: ماذا لديكم، في واقع الحال، غير الاستماع إلى المحاضرات الدينية على المنبر؟ تأتي عاشوراء أو شهر رمضان، فإذا سنحت لكم الفرصة وكانت لديكم رغبة، تذهبون للاستماع إلى محاضرة، أليس كذلك؟ وهناك أيضاً المقاطع القصيرة التي تشاهدونها على مواقع التواصل الاجتماعي، وقد لا تتجاوز مدة بعضها دقيقة واحدة.

ومثل هذه الخطوة المباركة التي يقوم بها مركز مدرك توفر لكم فرصة للاستماع والتعلم؛ فتأتون وتستمعون إلى الفضلاء، ضمن برنامج لطيف وجميل. ولكن هل هذا هو كل ما لديكم؟ أم أن هناك شيئاً إضافياً في حياتكم؟

لقد قرأت بعض الاستبيانات الخاصة بالشباب، وفيما يتعلق بأهم ثلاثة كتب قرأت، كانت النسبة أكثر من 85% ممن لم يقرأوا كتاباً واحداً. لذلك لا تنتظروا المعلومة حتى تأتيك.

أنتم بحاجة إلى مصدر واضح للمعرفة الدينية؛ لكي تمشوا في طريق صحيح. لا ينبغي أن يكون الإنسان عرضة لكل من يأتي فيأخذ من الشباب مجموعة ثم يذهب بها، فيبدأ هؤلاء بالركض وراءه. ثم يأتي شخص آخر برأيه، فيأخذ مجموعة أخرى، فيتبعونه أيضاً.

لماذا يحدث ذلك؟ لأن المعرفة غير موجودة، ولأن التفقه في الدين غير موجود، ولأن الاطلاع قليل.

المعلومة لا تنتظروا أن تأتيكم، وإنما اذهبوا إليها وابحثوا عنها.

انظروا إلى أنفسكم: كم من عمركم تنفقون في الدراسة الأكاديمية؟ كم سنة تقضون؟ وكم مليوناً أنفقتم؟ كم كتاباً قرأتم؟ وكم درساً خصوصياً حضرتم؟ وكم ساعة خصصتم للقراءة والدراسة؟

هذا جيد ولا بأس به، ونحن نحب أن يكون المؤمن الشيعي مثلكم متفوقاً في دراسته الأكاديمية، ولكن دعوني أسألكم: ما الأولى؟ دراسة الكتب الأكاديمية وحدها، أم أن يكون للإنسان أيضاً تفقه في دينه؟

أن تقرأ كتاباً أو سلسلة كاملة في أصول الدين، وتفهم من هو الله سبحانه وتعالى، وما صفاته، وما الأدلة على وجوده، فهذا يكوّن لديك قناعة دينية، ويمنحك قدراً من الاستقرار في اعتقادك.

عندما تتكون لديك هذه المعرفة، لا تهزك أقل شبهة، ولا تؤدي أقل مغالطة إلى زلزال في قناعاتك؛ لأنك لم تبنِ دينك على السماع العابر، وإنما بنيته على معرفة وفهم وقراءة وبحث.

[مناقشة المغالطة في وجوب الخالق]

سؤال افتراضي: من الأسئلة التي قد تطرح في باب إثبات وجود الله سبحانه وتعالى: «كل موجود لا بد له من خالق، والله موجود، فلا بد أن يكون له خالق، فمن هو خالق الله؟».

أليس يقال إن كل موجود لا بد له من خالق؟ وهل يمكن أن يوجد شيء من دون خالق؟ الله سبحانه وتعالى موجود أم غير موجود؟ فإذا قلنا إنه موجود، فمن الذي خلقه؟

لكن تأملوا في هذه المقدمة قليلاً: لكي يكون الموجود محتاجاً إلى خالق، لا بد أن يكون مخلوقاً. أما إذا كان هو نفسه غير مخلوق، فلا يصح أن نسأل: من خلقه؟

فلو قلنا إن الله مخلوق، لاحتاج إلى خالق، وهذا الخالق سيحتاج بدوره إلى خالق آخر، ثم يحتاج الخالق الآخر إلى خالق، وهكذا تستمر السلسلة من دون نهاية. وهذا غير معقول؛ لأننا نحتاج في نهاية الأمر إلى خالق أول غير مخلوق، تنتهي إليه سلسلة العلل، وبه ينتهي السؤال.

والجواب الأساس هنا أن العبارة: «كل موجود لا بد له من خالق» ليست صحيحة على إطلاقها. بل ينبغي أن نسأل: هل كل موجود يحتاج إلى خالق، أم أن الذي يحتاج إلى خالق هو نوع معين من الموجودات؟

في الدروس التمهيدية التي نعطيها لطلبة العلم عندما يأتون إلى الحوزة، نعلّمهم هذه الأوليات؛ لأن هذه القضية قد تكون منشأ لمغالطة واضحة.

فعبارة «كل موجود له خالق» غير صحيحة. من قال إن كل موجود لا بد له من خالق؟

الصحيح أن نقول: كل ممكن، وكل مخلوق، وكل ما لم يكن ثم كان، لا بد له من خالق. أما واجب الوجود، فلا يحتاج إلى خالق؛ لأنه ليس مخلوقاً ولا مسبوقاً بالعدم.

وهنا تكمن المغالطة التي قد تمر علينا من دون أن ننتبه إليها: نحن نطلق حكماً على «كل موجود»، مع أن الموجودات ليست على نحو واحد. هناك موجود مسبوق بالعدم، وهذا هو الذي يحتاج إلى خالق؛ لأنه لم يكن ثم كان. وهناك موجود غير مسبوق بالعدم، فلا يحتاج إلى خالق.

إذن، السؤال: «من خلق الله؟» مبني على افتراض أن الله سبحانه وتعالى مخلوق، وهذا الافتراض هو محل الخطأ؛ لأن الذي يحتاج إلى الخالق هو الموجود الذي كان مسبوقاً بالعدم، أما الله سبحانه وتعالى، بوصفه واجب الوجود، فليس مسبوقاً بالعدم ولا يحتاج إلى خالق.

ولتقريب الفكرة إلى الذهن، يمكن أن نضرب مثالاً بسيطاً من حياتنا اليومية.

هذا الشراب الذي تشربونه – العصير-، تجدون فيه حلاوة، أليس كذلك؟ فمن أين جاءت هذه الحلاوة؟ وما مصدرها؟ نقول: السكر. فالشراب الذي نشربه فيه حلاوة، ومصدر هذه الحلاوة هو السكر.

لكن إذا قلنا: كل شيء فيه حلاوة لا بد أن يكون له سبب أو علة لهذه الحلاوة، فنسأل: ما مصدر حلاوة السكر نفسه؟ وما الذي أوجد فيه الحلاوة؟

وكذلك كل شيء تأكلونه وفيه ملوحة، من أين جاءت ملوحته؟ نقول: من الملح. أضفنا الملح إلى الأرز أو المرق أو الخبز أو الصمون أو العدس، فأصبح مالحاً.

لكن إذا سألنا: الملح نفسه، من الذي ملّحه؟ هل نقول إننا نحتاج إلى أن نضيف ملحاً إلى الملح حتى يصبح مالحاً؟

هنا يتضح المقصود من المثال. نحن نقول: إننا نملّح الطعام؛ لأن الطعام لم يكن مالحاً ثم صار مالحاً بعد إضافة الملح إليه. أما الملح، فليس ملوحته حادثة بعد أن لم تكن موجودة، بحيث نقول: كان هناك ملح غير مالح ثم طرأت عليه الملوحة. نحن نتعامل مع الملح بوصفه مالِحاً في ذاته، ولا نسأل: من الذي ملّح الملح؟

أريد من خلال هذا المثال أن أقرب فكرة معينة، وهي أن الصفة إذا كانت موجودة في الشيء على نحو غير مسبوق بالعدم، فلا يصح أن نبحث لها عن علة بهذا المعنى؛ لأن الذي يحتاج إلى علة هو ما لم يكن ثم كان.

والله سبحانه وتعالى غير مسبوق بالعدم، حتى نسأل: من الذي أوجده؟ فهو واجب الوجود لذاته، ولم يمنحه أحد الوجود؛ لأنه ليس مسبوقاً بالعدم حتى يحتاج إلى من ينقله من العدم إلى الوجود.

وهذا التصور قد يكون صعباً علينا في البداية، فلماذا؟ لأننا مخلوقون، وكل ما يحيط بنا تقريباً من الموجودات التي نعرفها مخلوق. ولذلك أصبح المألوف لدينا أن كل معلول لا بد له من علة، وأن كل ما نراه قد جاء إلى الوجود بعد أن لم يكن.

أما وجود موجود غير مسبوق بالعدم، فهذا ليس أمراً مألوفاً لنا. ولذلك عندما نسمع: «هناك موجود ليس له خالق»، قد يقول الإنسان: أنا لا أقبل هذا الكلام.

لكن ينبغي أن نفرق هنا بين العقل والعادة. ليس معنى عدم قبول الإنسان للفكرة في بادئ الأمر أن العقل يحكم باستحالتها؛ وإنما قد يكون السبب أنها مخالفة لما اعتدنا عليه.

فوجود موجود غير مسبوق بالعدم قد لا يكون مألوفاً لنا بحسب العادة والتجربة التي نعيشها، لكنه ليس أمراً يحكم العقل باستحالته. العقل يمكنه أن يتصور وجود موجود غير مسبوق بالعدم، وإن كان هذا التصور يحتاج إلى تأمل؛ لأن ما اعتدناه في حياتنا هو أن الموجودات من حولنا مخلوقة ومسبوقة بالعدم.

برنامج عملي ومصادر مقترحة

هناك برنامج عملي يمكن أن يبدأ به الإنسان لبناء معرفته الدينية بصورة تدريجية.

لدينا كتاب بعنوان «عشرة دروس في العقيدة» للسيد رياض الحكيم، ويمكنكم قراءته بهدوء وتأنٍّ، درساً بعد درس، حتى تتكون لديكم معرفة أولية ومنظمة في مسائل العقيدة.

ولدينا أيضاً كتاب «المعرفة المهدوية: دروس في المعرفة» للسيد رياض الحكيم، وهو يساعدكم على التعرف إلى إمام زمانكم ومعرفة بعض المسائل المرتبطة بالإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه.

وفي جانب فروع الدين والأحكام العملية، يمكن الرجوع إلى كتاب «الفتاوى الميسرة» للسيد السيستاني، والاستفادة منه في مسائل الوضوء والصلاة وغيرها من الأحكام التي يحتاج إليها الإنسان في حياته اليومية.

وهناك أيضاً كتاب «الذنوب الكبيرة» للسيد دستغيب، ويمكنكم الاطلاع عليه لمعرفة عدد من المحرمات في الشريعة الإسلامية. فنحن اليوم نعيش وسط كثير من الالتباس والضجيج: من يقول إن الغناء حرام؟ ومن يقول إن الغيبة حرام؟ وما حكم الحديث مع الجنس الآخر؟ وما حدود ذلك؟

هذا الكتاب يعرض مجموعة من الذنوب الكبيرة، ويذكر الأدلة على تحريمها من القرآن والسنة والعقل والروايات، وبأسلوب بسيط يمكن للشاب أن يفهمه ويستفيد منه. لذلك، اسعوا وراء المعلومة أيها الشباب، وابحثوا عنها بأنفسكم، وتفقهوا في دينكم. ماذا قال الأئمة عليهم السلام؟ «تفقهوا، تفقهوا، تفقهوا». اقرأوا، واقرؤوا، واجعلوا القراءة جزءاً من حياتكم.

لكن في الوقت نفسه، لا تقرؤوا لكل من كتب أو تحدث، ولا تجعلوا كل كتاب مصدراً لمعرفة دينكم من دون تمييز. قبل أن تقرأ، اسأل أهل الثقة: ماذا أقرأ؟ ولمن أقرأ؟ وما الكتب التي تناسب المرحلة التي أعيشها؟

فالقراءة بحد ذاتها ليست كافية، وإنما المهم أن تعرف ماذا تقرأ، ومن أين تأخذ معرفتك.

وهذا يشبه ما نفعله في الطعام. هل كل طعام نراه في السوق نشتريه ونأكله من دون أن ننظر إلى جودته ونظافته وصلاحيته؟ بالتأكيد لا. نحن نختار الطعام الجيد والصالح، ونتجنب ما نعرف أنه فاسد أو ملوث.

وكذلك المعرفة الدينية: اقرأ، وابحث، وتفقه، ولكن تعلّم كيف تختار مصادر معرفتك، واسأل أهل الاختصاص والثقة عن الكتب التي تقرؤها والمصادر التي تعتمد عليها؛ حتى تبني معرفتك الدينية على أساس صحيح.

عن أبي جعفر (عليه السلام): ((في قول الله عز وجل: {فلينظر الإنسان إلى طعامه} قال: قلت ما طعامه؟ قال: علمه الذي يأخذه، عمن يأخذه))[9]. الطعام هنا المراد به العلم، أيُ محاضر أسمعه، كل من يتحدث أسمعه، كل من يظهر على (التيك توك) أسمعه؟ ابحثوا عن المعلومة الصحيحة.

من الآن، اتخذوا قراركم. وأنتم اليوم في النجف الأشرف، وفي رحاب مرقد أمير المؤمنين عليه السلام، قولوا له: «سيدي، اقذف حب التفقه في قلبي، ودلني على الطريق الصحيح. دعني أقرأ كتابين أو ثلاثة في أصول الدين، وكتابين في الأخلاق والمحرمات، حتى تتشكل عندي رؤية واضحة، وتكون لدي بصيرة، وأعرف طريقي».

[9] ـ الكافي، الكليني: ١/ ٥٠.

نحن مقبلون على فتن واختبارات فكرية كثيرة، وليس كافياً أن أستمع إلى محاضرة لمدة ساعة، ثم تدخل المعلومة من هنا وتخرج من هناك من دون أن يبقى منها شيء في ذهني.

أنا بحاجة إلى برنامج واضح: أحدد المصادر أولاً، ثم أضع منهاجاً لقراءة هذه المصادر. وخلال سنة، أكون قد أنهيت مجموعة محددة من الكتب في أصول الدين، ومجموعة في فروع الدين، وكتباً في الأخلاق، بحيث أعرف في نهاية السنة ما الذي قرأته وما الذي استفدته.

أضع البرنامج وألزم نفسي به.

وهذا هو حديث الأئمة (عليهم السلام)؛ فقد وردت روايات كثيرة تحث على التفقه في الدين، وتؤكد أهمية أن يكون المؤمن عارفاً بدينه.

وقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) ما يدل على شدة اهتمامه بتفقه أصحابه، حتى روي عنه أنه قال ما مضمونه: لو وضعت السياط على رؤوس أصحابي حتى يتفقهوا في الدين لفعلت.

ويُروى أيضاً في بيان التقصير في المعرفة أن الشاب إذا جاءه الإمام وسأله: من ربك؟ وطُلب منه أن يأتي بدليل على ربه، ولم يكن قادراً على الإجابة، كان ذلك موضعاً شديداً من التقصير في طلب المعرفة.

فعلينا أن نسأل أنفسنا: أين تذهب ساعاتنا؟ كم من الوقت نقضيه على الهاتف، وفي متابعة الرياضة، وفي أمور أخرى قد لا تضيف إلى حياتنا معرفة أو نفعاً حقيقياً؟ إذا كان الإنسان قادراً على أن يخصص جزءاً من هذا الوقت لمعرفة دينه، فلماذا لا يفعل؟

فلنضع برنامجاً واضحاً. من الآن نحدد المصادر، ثم نضع برنامجاً لقراءة هذه الكتب خلال سنة واحدة، وبعد أن ننتهي منها نبدأ مرحلة جديدة ودورة جديدة من التعلم.

أما القراءة، فلا غنى عنها. المحاضرة تساعد، والمقطع القصير يساعد، والبرنامج الثقافي يساعد، وهذه كلها عوامل مساعدة، لكن ينبغي أن يكون هناك أصل أبني عليه معرفتي.

أريد أن آخذ المعلومة الصحيحة، وأشكل لنفسي منظومة معرفية واضحة، حتى أعرف طريقي، وأعرف إلى أين أتجه، وما هي وجهتي، وأستطيع أن أتعامل مع الشبهات بعلم وفهم، وأن أميز بين الغث والسمين، فأعرف أن هذا الطرح جيد، وأن هذا الطرح غير صحيح، وأن هذا الكلام يحتاج إلى مراجعة ودليل.

هذه هي الغاية من التفقه: أن لا يبقى الإنسان متلقياً لكل ما يسمعه، وإنما يصبح لديه من المعرفة والبصيرة ما يجعله قادراً على فهم دينه والتمييز في ما يعرض عليه.

نسأل الله التوفيق، وأن يبصّركم في دينكم وينجيكم من فتن آخر الزمان بالبصيرة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.